

الشعر العربي اللفظ عنصر من عناصر الحياة

يجب أن يتجدد باستمرار
الأستاذ الياس قنصل ، بوينوس آيريس

ترجمة الأستاذ محمد محمد الخطابي

تلقينا هذا البحث القيم من الأستاذ الياس قنصل وهو عبارة عن محاضرة ألقاها حضرة الأستاذ باللفة الإسبانية من الإذاعة الأرجنتينية تحت رعاية المعهد الثقافي الأرجنتيني - العربي بعنوان : « تمهيد لمعرفة الثقافة العربية » وقد نشرنا الأصل في مكان آخر من هذا العدد

سنجد في الشعر العربي الجاهلي تعبير الروح النقية الصافية لمشاكل الحياة المصرية ، هذه الروح التي هي شبيهة « برادار » كفيل بالتقاط أقل ذبذبات القلق الانساني .

لقد كانت « الكعبة » التي تقع في مدينة « مكة » بمثابة المكان المقدس لدى القبائل العربية ، وفي مطلع كل عام ، كان يهرع نحو هذه المنطقة ، ذوو الوقار والمهابة من مختلف الميول والاتجاهات ، لإقامة تجمعات كبيرة ، كانت ذات موضوع مميز ألا وهو الأدب ، حيث كانوا ينشدون القصائد التي تخضع لتقد بناء ، ويحللون فيها تلك التي تتواءم وأهواء العامة ، وأجود هذه القصائد - أي التي كانت تحظى برضى الحكام الثقات - كانت تكتسب على رفوق فاخرة ثم تملق على « الكعبة » . في هذا المكان الذي كان ينال احترام الجميع من شيخ القبيلة العظيم إلى الرجل العادي المجهول ، كان في إمكان الجميع قراءة هذه القصائد ، وبهذه الوسيلة يصبح للفن والبلاغة شعائر وطقوس .

ولما جاء الإسلام التي هذه العادة التي كانت تتضمن بعضاً من الوثنية البدائية . وفي تلك الحقبة نفسها كانت تقام دعائم المباريات الأدبية التي ما زالت لها ردود فعل عديدة في الوقت الحاضر . لقد كان « سوق عكاظ » ضرباً من « الأولمبياد » الفني ، كان يضم

ليس هناك شعب من بين الشعوب القديمة فاق الجنس العربي في تقديره للشعر ، ونستعمل كلمة « تقدير » ونحن على علم أنها لن نستطيع أن نعطينا التعريف القاطع للاحترام الذي كان يوليه العرب لفن الشعر .

البديهيات على ذلك كثيرة ، فحتى تاريخ العرب في الجاهلية إنما هو تاريخ الشعر .

وكل ما نعرفه من أخبار الحقبة التي سبقت الإسلام جاءت مروية ضمن « القصائد » التي وصلتنا منذ ذلك العهد ، والتي ما زالت حتى إيماننا هذه موضع بحوث ودراسات مختلفة .

تلك القطع الشعرية الموضوعة على نسق واحد - التي جادت بها القرائح في عزلة الصحراء وفي لحظات الضيق الروحي - رغم القرون البعيدة - ما زالت تحتفظ حتى الآن بالنكهة التي تصور لنا حيننا موسيقياً نحو الأوطان .

وإذا استثنينا من هذه القطع الشعرية الكلمات التي فقدت مدلولها بمرور الزمن - ونحن نعتبر اللفظ عنصراً مجهزاً من عناصر الحياة ينبغي له أن يتجدد بصفة مستمرة - أي إذا استثنينا الكلمات التي لم تعد تكتسب صبغة الحاضر - والتي هي قليلة جداً - فإننا

أحسن الشعراء ينشدون أمام الجميع آلاف من أجود القصائد المنتقاة . ودأبا كان هناك مراقبون من « حكام الكلمة » التسمين بالنزاهة والانصاف ، يدلون بأفكارهم القيمة ، والذين كانوا صريحين في آرائهم وموجهين في أحكامهم ، وكانت القصائد المختارة بمثابة البرهان الكبير على عظيمة القبيلة التي ينتمي إليها الشاعر الفائز .

ان الاسلام لم يضع حجر العثرة في طريق الشعر المزدهر - كما يزعم ذلك بعض المستشرقين ذوي النظرة السطحية المبلى - وانما جعل الاسلام حدا لعبادة الوثنية وحولها الى اهتماماته العادية ؛ ويحسن القول انه احل محلها معرفة فنية خالصة .

« حسان ابن ثابت » الشاعر العظيم الذي كان صديقا حبيبا للرسول « محمد » رافقه في مديد من غزواته ، وتفنى بانتصاراته ، كان النبي يوليه أهمية خاصة واضعا بذلك الشعر في مكانه المناسب من الاعتبار دون ان يسو به الى قمة الالهوية أو يهوى به الى سفح الانحطاط .

وحينما بسط العرب نفوذهم حول العالم طفر الشعر العربي طفرات جديدة ، تحول الى وسيلة لنشر الافكار ، وتمضيد قوى الفتح الجديد ، وتسخير الاتجاهات السياسية ، رافلا في ثوب جديد من الثواب البيان ؛ تحول الى قاعدة للنشر والديوع ، وقام بالدور الذي تقوم به الآن الجريدة والمذيع والتلفاز .

كانت الامور غريبة ، بحيث يحدث ان نجد اثنين من الشعراء المرموقين ذوي نزعات متباينة وهما يجاهدان تحت سياسة واحدة ، ذات مصلحة عليا تمهم العالم العربي واماراته التي كانت تمتد من الشرق الى الغرب .

وكانت للمعركة ايدولوجيات مختلفة ، فاحيانا تكون معمقا ذات سلاح متنوع قاطع ، تكون الكلمة البليغة احده واخطره ، واحيانا اخرى تكون سخرية حرة من خلال تطاحن الكلمات ، الشيء الذي يوضح لنا بجلاء التمكن التام من اللغة ، ويبرز لنا - في ذات الوقت - الذكاء الخارق للعادة المسخر لخدمة المثل العليا .

سيطول بنا الحديث اذا عددنا الامثال ، وترجمنا القصائد ، أو اذا شرحنا المواقف ، غير انه لا يد لنا ان نورد ثلاثة من الشعراء الذين يشكلون في رأينا - صروح القمة في الشعر العربي القديم .

انهم ألوان مختلفة ذات قدرة بلاغية ، دعائمها الخيال الغصيب ، والملاحظة الحازمة والحجة القاطعة . ان دواوين الشعراء الثلاثة ما زالت تدرس - حتى ايامنا هذه - في المدارس ، وسوف تظل دائما موضوعات بحث وتحليل .

« المتنبي » الشاعر الذي اودع الخيال العربي في القصائد ، وهو الذي عين في امثال سيارة طريقة التفكير عند العرب ووسيلة تصويرهم للحياة وكل ما هو موجود فيها من سمو وقوة .

ككل عبقر كان « المتنبي » يعد من المفتونين الاكابر الذين ينشرون - في كل مكان - اشعارهم وامثالهم بين الامعاء المتطرفين الذين كانوا ينتقدون على المتنبي كبريائه وغروره اللذين جاوزا كل حد .

لقد كان المتنبي ، في نظره الرجولية يمي جيدا طموح الماضي العربي ، كان تذكيرا متحمسا لوحدة العرب ، وواحدا من المبشرين بالقومية النقية من كل تعصب .

الشاعر الثاني هو « المعري » الذي كان ضريبا منذ طفولته البعيدة ، الرجل الواسع المتبحر العارف باحاسيس البشرية ، لقد كان فيلسوفا بالمعنى الدقيق للكلمة ، وكانت فلسفته متنوعة بحيث شملت كل انواع الاضطرابات وجميع مستويات العقل ، سواء كان يتخللها حزن متعاقب أو يعلوها حدث سعيد . انه ساخر رقيق تكاد تكون سخريته غير مرئية ، ولقد كان يضمن سخريته هذه افكاره التي كانت تمارض ووجهات نظر الحكام .

وحسب البحوث الاخيرة الخالية من كل تعصب ، فقد تأثر « دانتي » في كتابته لعمله الخالد « الجحيم » أو (الكوميديا الالهية) - تأثر « برسالة الففران » للمعري التي كانت مترجمة في ذلك العهد الى لغات مختلفة .

الشاعر الثالث هو « ابن الرومي » وهو الذي يكمل الثلاث الحاكم في الشعر العربي ، هذا الشاعر الذي اثرى الشعر العربي بفنائياته التي هي جديرة بكل اعجاب ، هذا العاشق الواله للجمال في جميع اشكاله ، لقد استطاع هذا الشاعر ان يسبر ابعاد افوار التفكير ، فطبع كل ذلك في قصائد حافلة بالحركة والحياة . لقد كانت عيناه المتلهفتان أبدا الى التقاط كل مظاهر الحياة ، بمثابة عدستين فوتوغرافيتين غاية

كل - القوالب المعقدة للحياة المعاصرة ، ولا نجزم بأن الشعر العربي الحديث يسير في طريق محكم سهل توضحه بل انه قد تعرض لجميع المشاكل المتنوعة في حياتنا الراهنة .

ان المؤرخ النزبه الذي يؤرخ لتطور الشعر العربي المعاصر لا يستطيع الاستغناء عن ذكر - ظاهرة من ظواهر هذا الشعر - التي تكاد تنفرد بنفسها بين تواريف الادب عامة . فاذا كان حقا ان الشعر العربي قد بلغ أوج عزه في موطنه الاصلية ، فانه لحق كذلك ان هذا الشعر قد اكتسب لمعانا واشراقا ملحوظين في بلاد امريكا .

ان مئات من الآلاف المهاجرين وعلى الخصوص في الارجننتين والبرازيل - كان من بينهم شعراء كبار ، ساهموا مساهمة محمودة في الادب العربي .

ان سماء هاتين الجمهوريتين ، وجمهوريات اخرى قد جمعت تحتها كثيرا من الشعراء العرب الذين رفعوا عاليًا أمجاد اوطانهم النائية معبرين بذلك عن الحب الذي يكنونه لبلادهم الام الكائنة وراء البحار ، ومشيدين - في نفس الوقت - بعظمة الانثر المكتوب

ان هؤلاء الشعراء البعيدين عن مساقط رؤوسهم والذين كانوا ملجئين من طرف قوات اجنبية ، قد وجدوا فرصة نشر قصائدهم الحماسية بعد ان تهيأ لهم جو من الحرية ، كانوا يتوقون اليه من قبل .

لقد وجد هؤلاء الشعراء في المواطن الارجننتين الاخ الذي فتح لهم ذراعيه بحرارة وصدق - ونحن نقول هذا من تجربة - ووجدوا في الارجننتين نفسها الركن الذي رحب بهم اشد الترحيب ، وهو بالنسبة لهم ينبوع الهام لتفكيرهم وتاملاتهم .

بهذه الكلمات الختامية ، نقدم شكرنا من هذا الكرم النبيل ، ونستأذن لنحمل لهذا الوطن الجديد تحية شعرية من اوطاننا الاصلية .. مرات تفوق الآلاف .

في الحساسية تلتقطان ادق دقائق الامور ، بامثتين الحياة في كل الاشياء ، ان اوصافه لما كان يراه او يحس به او يجري ورايه - انما هي استمرار متوال من الصور التي تفوق كل شيء حيوية ونقاوة ولمعانا .

لم تتوان المرأة العربية في مشاركتها المحمودة في الشعر العربي ، لقد مررت الكثيرات ممن قرصن الشعر ، ولكي تتضح لنا مشاركة المرأة في عالم الفن نورد الحكاية التالية :

سال خليفة أحد رعاياه المشهورين مرة فقال له :
— بلغني انك تستطيع ان تنشئ ألف قصيدة فهل هذا صحيح ؟

فاجاب الاعرابي :

— اجل يا صاحب المهابة ، ولكن هل تريدون ان اسمعكم الالف قصيدة من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ (1)

ان الشعر العربي المعاصر قد تأقلم مع طبيعة الحياة المعاصرة ، مدفوعا بتجدد العقل العربي بعد ان عاش أحداث اربعمائة سنة من الضيق الخارجي محتفظا - في جوهره بكآبة خفية - عن اجياله الماضية .

ان الشاعر العربي المعاصر يقف حاملا بين امطاف قلبه حيرة يصعب تحديدها ، هذه الحيرة التي كانت تستولى على روح الاعرابي الذي كان عليه ان يقطع كل يوم صحاري لا نهاية لها ، محدقا في الافاق التي تنتهي عند خط مستقيم دون حافز للتساؤل .

ولا نفي القول بان الشعر العربي المعاصر قد احتفظ بمناخيه المشرق ، ذلك لان « فن القول » في العالم قد تدهور ازاء الاكتشافات العلمية الحديثة ، ولم تكن الثقافة تكتسب قيمتها من الخيال الفسيح ولا من الكلمة المؤثرة الجميلة ، ولكن رغم كل ذلك ما زال الشعر العربي يحتفظ - باصالته وقدرته الهائلتين - في عقل هذا الجنس ، وهذا عامل من الاهمية في شيء بالنسبة للنهوض العربي الفائق .

لا نقول ان الشعر العربي المعاصر يتميز بطابع معين يحدد هذا الشعر ، ذلك انه عائق كل - او تقريبا

(1) وفي رواية اخرى ان شاعرا زار شاعرا آخر ، فلما طرق باب بيته خرج خادمه ، فقال له : ان سيدي لا يستقبل الا من كان يحفظ - على الاقل - ألف قصيدة . فاجابه الشاعر الزائر : اذهب وقل لسيدك هل يعني ألف قصيدة من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ (المترجم)